# فواعل بناء المعنى في النص الأدبي من المؤلف إلى القارئ

**Actors of constructing meaning in the literary text from the author to the reader**

**ط د- عبد السلام لوبار** [1,*].

[1] جامعة -البليدة 2 (الجزائر)، loubar.laarbi@gmail.com

**تاريخ الإيداع**: 2020/05/17 **تاريخ المراجعة**: 2020/12/10 **تاريخ النشر**: 2021/06/30

**ملخص:**

من البدهيِّ أنَّ القراءة عملية تشاركية تفاعلت فيها العناصر المشكلة للخطاب، من المؤلف وخلفياته وسياقاته إلى الرسالة ومضامينها وصولا إلى المتلقي وانفعالاته وعدَّته، فتنتقل من طور المخاض الفكري والوجداني للمؤلف إلى القراطيس التي تتشكل عليها الهيئة الصورية لهذه الأفكار والعواطف، يناجي بها قارئا قد يخالفه أو يشابهه في أفكاره تلك التي يرسلها طالبا رضاه، أو محاولا التأثير فيه والتغيير من قناعاته.

والقراءة ليس فعلا مجهولا يتهيَّبه كل مُقدِم عليها، بل هي فريضة ينبغي السعي إلى مصالحتها وتحديد استراتيجية واضحة لها، نتَّبعها منهجيا؛ علَّها تسعفنا في الإفضاء بمكنونات النصوص، لهذا حاولنا أن نبسط بعض القول في سيرة العمل القرائي إذ كان في مِهاده الأول، مَيلًا إلى نظرية القراءة عند النقاد الألمان الذين أبانوا عن حس نقدي متطور، من خلال تجزيء عملية القراءة إلى أفعال متسلسلة تشكل مراحل القراءة المنهجية التي تتغيا بناء معنى النَّص.

**الكلمات المفتاحية**: القارئ؛ النص؛ نظرية القراءة؛ الخطاب؛ المؤلف.

***Abstract***

*It is clearly that reading is a participatory process in which the constituent elements of speech interact. From the author, and his backgrounds to the message and its contents, even to the receptor and his emotions and cognitive kit, so it moves from the stage of intellectual and emotional production of the author, to the leafs on their formal picture of these ideas and emotions, has addressed to a reader may disagree, or resemble her in his thoughts, then the writer tries to agree with it, or tries to influence him and change his convictions.*

*Reading is not an unknown act that reader fears, rather it is a duty that must be sought to reconcile and define a clear strategy for it, which we systematically follow; Perhaps helping us to explain the components of the texts, so we tried to explain the mechanism in the context of the work of reading since it was in its infancy, then to get*

*المؤلف المراسل

*to the theory of reading by German critics who developed advanced criticism sense, by dividing the reading process into sequential verbs that constitute the stages of systematic reading that seeks to build the meaning of the text.*

***Key words:*** *reader; texte; rection theory; speech; author.*

## 1-القارئ في النقد الأدبي القديم:

إنَّ الميراث الضخم من النصوص الذي وصلنا من الأدب العربي القديم مع كل ما اكتنفه من انتخاب للمعلقات وعيون الشعر والخطب لابد أن يكون قد ارتفق بأحكام نقدية أبلغته هذا المبلغ من المقبولية والانتشار، وقد كفلت له هذه القراءات المتتالية عبر الزمن الحفاظ على وجوده والحظوة بالقبول، لكن الشائع أنَّ المدونة النقدية القديمة اتسمت بشيء من الانطباعية أول أمرها، ثم تطورت إلى العناية بالأحكام الجزئية فالنقد اللغوي (النحوي والبلاغي والعروضي) بعد ظهور علوم اللغة العربية، مع الحفاظ على الكثير من انطباعيته؛ دون اكتشاف سرائر هذه النصوص والخروج بتعليل لهذه الظواهر الفنية العجيبة، فأصبحوا يردون أسرار هذا الإبداع إلى عوامل خارجة عن النَّص وإن كان لهذه الفكرة بُعد في النقد العربي القديم بدءا من شياطين الشعراء وقبائلهم ومدنهم، إلا أنها تطورت لتشمل المجتمع الذي أفرز النص، وبيئته وحقبته التاريخية وكل المؤثرات والظروف الاجتماعية حوله التي من شأنها أن تكون فاعلة في صناعته، ثم نفسية كاتب النَّص وانفعالاته وأمراضه وتفاصيل حياته لتخرج بكون النص تجليا لظاهرة مبطنة في نفس المبدع، ليصل إلى مقاربات لم تشف غليل النقاد ولم تفلح في استخلاص معاني النصوص.

ليغير النقد اهتمامه إلى النص الأدبي معزولا عن منتجه وبيئته، ويركز على بنيته الداخلية وترابطه ودلالة علاماته، ومفارقتها لما هو مألوف من انتظام العلامات في غيرها من النصوص التي عهدها منذ وضع قواعد هذا الانتظام، وارتكنت لهذه النظريات الكثير من الدراسات النقدية وتبناها عدد غير قليل من النقاد حتى سيطرت على الساحة النقدية عصورا، إلا أنَّ نتائجها الميدانية ظلت تعاني نسبية قصُرت عن بيان مراد النص لإلمامها ببعض جوانبه دون الجوانب الأخرى وإهمالها لكثير من العناصر التي من شأنها المساعدة على مقاربة النصوص وتبين حقائقها رغم أنها قد مارستها منذ عصور النقد الأولى، وهي الاهتمام بالقارئ، إذ لم تطفُ هذه النظرة إلى السطح إلا في ستينيات القرن العشرين حين وضع ناقدا مدرسة كونستانس: "وولفغانغ إيزر" و"هانس روبرت ياوس" مجموعة من الاستراتيجيات تفعِّل تجاوب القارئ مع النص وتبرز دوره الأساسي في بناء المعنى، استنادا إلى جملة من خبرات المناهج السابقة وإلى الإسهامات الفلسفية "لإدموند هوسرل" و"هانز جورج غادامير" وبعض منظري نظرية القراءة.

## 2-الحاجة إلى المعنى في النص الأدبي:

لكن الجدير بالذكر أنَّ الإشارة إلى أهمية القارئ في صناعة معنى النص تعود جذوره إلى القرن التاسع عشر حين بيّن لورنس ستيرن اشتراك الكاتب والقارئ في المعنى الموجود في النص حيث رأي أنَّه "لا ينبغي للمؤلف أن يطمح إلى الإحاطة الفكرية الكاملة بالنَّص، لأنَّ الاعتراف بذكاء الآخرين يفرض على المؤلف أن يترك للقارئ حق بناء تصوره الخاص للنص"[1] وسارت على ذلك كثير من الدراسات التي تلتها لتؤكد دور القارئ في بيان حقيقة النصوص، بل القارئ هو الموجد للنص ولولاه لن يكون للنص أي وجود، وسيكون بمثابة عمل غير مكتمل "لأن

عملية الكتابة تستلزم عملية القراءة، والجهد المشترك للمؤلف والقارئ هو الذي يبرز هذا الشيء الملموس والخيالي الذي هو عمل الروح، إذ لا فن إلا بالآخرين وللآخرين"[2] وإزاء هذه الالتفاتات قامت الحاجة إلى تبني نظرية تعنى بالقارئ وترسم دوره في إنتاج المعاني النصية، وتضع الاستراتيجيات والآليات اللازمة لطرق إنتاج المعنى، وزادت العناية بقراءة النصوص الأدبية واستثمارها لبلورة واقع هذه النظرية لتصبح معتمدة في كل عملية نقدية تروم مقاربة النص الأدبي.

إنَّ سطوة النصوص الأدبية وتأثيرها على المتلقي والاستمتاع بها مما يصعب تفسيره عند النقاد، فهي انفعالات تحدث في لا شعور القارئ تحدث معها الاستجابة الجمالية، تطول أو تقصر بحسب قدرة النص على التأثير وقابلية القارئ للتأثر، ومما يدخل ضمن نطاق هذا التفاعل قدرة المتلقي على رؤية نفسه وتكوين ذاته داخل النص الأدبي، ثم تحقيق الوظيفة النفعية من خلال النص المقروء، لتستمر هذه السطوة مع المتلقي في دخيلة نفسه، أو طافية في ذكرياته، فكانت الفكرة التي سمحت لإيزر بإجراء أبحاثه في نظرية القراءة والتسليم بالوظيفة النفعية والتعليمية للأدب والتي تمنحه القدرة على الاستمرار في الحياة وتجنب الأخطاء، إذ "بدا له أنَّها أحد وظائف الأدب الأولية، والتي تسمح له بالوصول إلى استبصار ما يمكن أن يقع في شباكه"[3]، هذه الوظيفة التي تسمح للقارئ بفهم الحاضر واستشراف المستقبل من خلال معايشة تجارب حياتية في النصوص الأدبية تجعله يرى نفسه من خلالها ويعيد النظر في مسلماته، ويكون وعيه بالعالم ليكوِّن ذاته، قبل الانتقال إلى الوظيفة الجمالية التي تتحقق وفق شروط معينة، منها المتعة التي يجدها في النص والإجابة عن أسئلته، والانفعالات التي تخلق فيه، بسبب العناصر التخييلية التي تجعل الإنسان يعيش حياة مغايرة ويكتشف تجارب وعوالم جديدة، مما يفسر بعض الحاجة إلى الأدب وضرورة التكامل بين النصوص الأدبية وقرائها.

نظرا للشغف البشري بالاكتشاف والمغامرة، لهذا كان أحد أسئلة إيزر الجوهرية التي أدخلته إلى مجال نظرية القراءة "لماذا نجد أنفسنا باستمرار مسوقين إلى أن نمد أنفسنا إلى ما وراء أنفسنا؟"[4]، لأن الأدب يستطيع تحقيق واقع تخييلي آخر يفزع إليه الإنسان للبحث عن حلول لمشكلاته الاجتماعية والنفسية والفكرية داخل ذلك الفضاء اللامحدود بالقوانين العقلية، فهو يستطيع إنشاء عالم موازٍ يجرب فيه الإنسان تجاربه المعيشة بطريقة تخييلية، تجعله يلجأ إلى الأدب كلما تبادرت لديه سؤالات عالقة دون أجوبة، يقوم فيه بما لا يستطيع القيام به في الحقيقة في أي مجال أراد، ويواجه فيه مشكلاته التي يعجز عن مواجهتها في الواقع، ويمنح فرصة للمتلقي ليبصر ذاته داخل النص ويجد حلولا لمشكلاته وتساؤلاته، وتدفعه للبحث عن الأدب الذي يبني عليه تجربة مختلفة ويشكل واقعا جديدا.

إنَّ القراءة كعملية يتجاوز بها القارئ عالمه الحقيقي إلى عالم تخيلي يتم بها التفاعل مع النص بطريقة متماهية، بطريقة يعاد بها رسم واقع جديد متخيل وربما مناسب للقارئ، عن طريق الدخول في هذا النص وتغيير حيثياته وفق ما يسمح به هذا التفاعل، وتتحدد هذه التغييرات عبر مؤثرات ذاتية: فكرية ونفسية أو موضوعية فرضت نفسها على مؤلف النص ثم قارئه حتى ينتج لنا نصا جديدا جراء ذلك التفاعل الحاصل بينه وبين النص، وهذه إحدى أهم وظائف القراءة أي منح القارئ فرصة التجاوب مع هذه المؤثرات والاستجابة لرغباته النفسية واحتياجاته الفكرية، في عملية مركبة وتركيبية على مستويات عدة أولها "إدراك النص ثم التعرف عليه وفهمه ثم

تفسيره، أو هي إدراك شيء محسوس ومحاولة التعرف على مكوناته، وفهم وظيفتها ومعناها، فهي تبدأ بإدراك النص إدراكا واعيا، وتستمر العلاقة الذهنية بين النص وقارئه إلى غاية ترجمة النص من عنصر مادي إلى عنصر معنوي"[5]، تتداخل معه المعطيات الفكرية والأحاسيس والمشاعر، للوصول إلى القدرة على تفسير هذه الصلة بين النص والقارئ وتلك التفاعلات والانفعالات، وبالتالي جمالية النص.

إنَّ للشعور دورا هاما في إنجاز العملية القرائية، مهما كان يتبادر لنا أن الذهن هو من يقوم بها؛ لأن الشعور هو ما ينشط الجانب النفسي أثناء القراءة، ويقوم بدور أحد الروابط بين النص والقارئ ويقوي التفاعل بينهما إضافة إلى دور الجانب الفكري في التعامل مع النص والتقدم في مستويات القراءة التي تتغيا استخلاص معنى النص الأدبي، فمن مستوى الإدراك الذي يجب أن يحتوي النص وكل ما يحيط به إلى المتلقي، لتدخل ضمن نطاق هذا النص المراد قراءته، وكل هذه العناصر الذي يدركها الحس ضمن هذا النطاق عبارة عن نصوص بدورها تنضاف إلى النص الأدبي ويتكون في وسطها، "فالإدراك مستوى حسي يعتمد على الحواس: الشم أو البصر أو السمع أو اللمس، إدراك حسي لشيء مادي..أما التعرف فينطوي على عملية ذهنية تستكنه الطبيعة السيميوطيقية لهذا الشيء، رغم أنَّ هذا المدرك شيء مادي ينتمي إلى عالم الواقع إلا أنه ذو طبيعة خاصة، إنَّه علامة، أي ينتمي إلى نظام سيميوطيقي...، أما الفهم فهو محاولة فك شفرة العلامات، وهو المستوى الأولى للتوصل إلى الدلالة، ويتطلب درجة كبيرة من التعلم...وقد تتوقف عملية القراءة عند هذا المستوى الثالث، عند فك شفرة الشيء. ولكن في أحيان أخرى تكون هذه الدلالة مبتورة أو مغلوطة، فلابد من البحث عن مستوى أعمق يحتاج إلى تفسير أو البحث عن شفرة جديدة توصل إلى المعنى الثاني"[6]، وتقوم مستويات القراءة هذه على تصور سيميائي يتجاوز العلامات المرئية الموجودة في النص المكتوب إلى الدلالات الماورائية.

**3-محددات المعنى بين القارئ والنص:**

**1.3-السياق:**

من أهم أسباب قصور المناهج التي اهتمت بالنص الأدبي منغلقا على ما سواه وجعله محور الدراسة؛ عدم إيلائها السياقات الخارجية للنص ولمؤلفه الدراسة الكافية التي يجب أن يحظى بها، فكانت جل النتائج المتوصل إليها في مقاربة النص غير شافية لغليل الباحث، هذا إذا استثنينا منها تلك التي لم تلامس المعنى مطلقا، فكان لزاما إعادة النظر في هذه الرؤية المنهجية ومراجعتها للتعامل مع النص بطريقة أخرى تجعله أكثر انفتاحا وأكثر تشاركا للمعنى الذي يحمله مع القارئ المراود له، وإعادة جمع مكونات المحيط الخارجي المركب الذي يكتنف النص، بكل عناصره الاجتماعية والتاريخية والثقافية والفنية والفكرية والنفسية المترابطة، كونها قد تفاعلت لإنتاج النص كبنية متكاملة ومرتبطة من جميع هذه العناصر لتشكل النص الأدبي، لذلك التُفت إلى "السياق كضرورة فنية لإحداث فعالية الكتابة، والكتابة لا تحدث بشكل معزول أو فردي، ولكنها نتاج لتفاعل ممتد بعدد لا يحصى من النصوص المخزونة في باطن المبدع، ويتمخض عن هذه النصوص جنين ينشأ في ذهن الكاتب ويتولد عنه العمل الإبداعي الذي هو النص"[7]، بكل أبعاده المحيطة من ثقافة وفن وتاريخ ومجتمع مع الدور الذي تقوم به في التمهيد لعملية التلقي وتسهيلها وصناعة الأرضية المشتركة بين النص والقارئ من أجل عملية قراءة مثلى "فالعمل الأدبي في اللحظة التي يظهر فيها للوجود لا يبدو وكأنه شيء جديد تمام الجدة برز في فراغ.

فالجمهور بواسطة جملة من الإشارات المرجعية الظاهرة أو الضمنية والسمات المألوفة يكون مستعدا لنمط من الاستقبال"[8] تضعه في الجو المناسب لتلقي النص والاندماج معه، بحكم أنَّ التلقي ليس عملية عشوائية ولا متاحة في كل الأوقات ولا تحت أي ظروف يستطيع فيها القارئ تذوق النص الأدبي في ضوء تأثيرات السياقات المتصارعة مع الذات القارئة، وهذا الصراع هو مما يمنح إمكانية الانسجام وتشكيل الواقع الجمالي وتحقيق التفاعل بين القارئ والنص لبداية بناء المعنى، في شروط معينة، مع الإشارة إلى أن الاختلاف الكبير في السياقات وابتعاد الأرضية المشتركة بين أقطاب العملية الإبداعية قد تفشل المسار القرائي وتحكم على العمل الأدبي بالموت، كما أنَّ ضعف هذه الروابط السياقية أو نقصها مما يقلل ظروف التفاعل ويباعد الهوة بين النص وقارئه، سواء كان مبعث هذه الاختلافات والنقائص هو الفارق الزماني أو المكاني بينهما أو الثقافي والإيديولوجي، فالمتلقي يتفاعل مع النص حسب سياقاته الخاصة.

ومن أهم السياقات التشاركية بين النص والقارئ، المادة التي كتب بها النص أي اللغة، بمكوناتها التي تكتسب قيمتها حين دخولها ضمن التراكيب التي ترسمها قواعد تلك اللغة، وترتصف وفق نظام معين يعطيها دلالاتها داخل هذه التراكيب فالجمل ثم النصوص، لتُعطى بهذه الطريقة دلالات لا نهائية كلما تشعبت دائرة ارتباطاتها وازدادت اتساعا، إذا ما روعيَ تمثل القارئ لهذا النظام في وعيه وإدراكه للكثير من الاحتمالات التي تتخذها دلالة كل لفظة بمفردها ثم داخل تركيبها وضمن سياقها أيضا، علما أنَّ المؤلف نفسه ستغيب عنه جل الدلالات التي تحملها اللفظة حال تدوينها في موضعها، كونه سيكون محكوما بأطر خاصة تنظم تسلسل هذه العلامات النصية الدالة، لذا فأفق القارئ سيكون أكثر انفتاحا على هذا الاتساع الدلالي من أفق الكاتب نظرا لقدرته على إدراك الكلمات في حالتها المفردة، ثم في حالتها داخل النص من خلال القراءة التأملية، فقد يغيب عن القارئ بعض ما استحضره الكاتب من المعاني الخاصة بالألفاظ عند الكتابة، وكذلك الأمر بالنسبة للكاتب، فينتج عن ذلك قراءة مخالفة لمراد الكاتب وهنا يبرز دور السياق الذي يربط بينهما داخل دائرة النظام اللغوي، فاللغة أيضا تشكل سياقا فاعلا في تحقيق عملية قراءة ناجحة في حالة استحضار المعاني المعجمية الحقيقية والمجازية وتقليب الاحتمالات وترجيح بعضها على الآخر، دون التزام صارم بالمدلولات المفردة للدوال التي وضعت في المعجم، خاصة مع ما يميز اللغة الأدبية من تخييل ومفارقة وانزياح عن المعاني والتراكيب المألوفة، وما ينبغي أن يتشكل به النص الأدبي من مغايرة لكل شكل قد اعتاده القارئ، وتحميل الدوال مدلولات جديدة تصوغها القدرة الإبداعية للكاتب، لترفع بذلك من قيمة رابط آخر يربط المتلقي بنصه وهو تلك الانفعالات والدهشة التي تجعله يزداد توغلا في النص وبحثا عن أسباب هذا الاختلاف للإجابة عن تساؤلاته، مما يزيد حيوية النص وثراءه بالمعاني، لأنَّ "الأدب يستعير مجموع صوره من نظام تم تكوينه خارجا عنه: اللغة. وبالفعل فإن الشكل الأولي للأدب ليس في الأصوات ولكنه في الكلمات والجمل، ولهذه دال مسبق ومدلول"[9]، وهذه الدوال لا يمكنها بناء المعنى دون قارئ يلبس عليها مدلولاتها، مما يحملنا على التساؤل عن مصدر المعنى في النص الأدبي، أهو من صنع كاتب النص يخبئه داخله وينقل معه المعنى أينما حل ينتظر قارئا يستهلكه، أم أنَّ النص مجرد علامات سالبة يأتي القارئ ليعطيها معانيها بعد اكتشافه وقراءته، داخل هذه المنظومة السياقية التي تؤطر عملية القراءة

حسب نموذج القارئ الذي يواجه النص بعدته القرائية وخبراته السابقة، ليعطي للنص المعنى الذي يناسبه أو يحتمل الخروج به.

**2.3-النص والمعنى:**

إنَّ القارئ إذ يتناول النص الأدبي فهو يتناوله داخل إطارين: زماني ومكاني يفصلانه عن النص، وأهمية تحديد هذين الإطارين تفيد في القدرة على معرفة مراد المؤلف وتوقعات القارئ، لكن بين هذين الخيارين إضافة إلى تباعد الإطارين الزماني والمكاني تنفتح دلالات لا نهائية للنص الأدبي يصعب معها تحديد المعنى الأصلي إلى درجة يغيب معها مراد المؤلف من جهة فيخرج النص من سطوته ليحمل ما شاء من الدلالات من جهة أخرى، إضافة إلى دلالاته الأصلية "إذ لكل نص دلالة أولية، تقوم إلى جانبها إشكالية تَضَمُّن النص للمعنى بداخله، أم أنَّ المعنى صنيعة القارئ، وهذه الإشكالية تصدق على النصوص الأدبية كلها، ومردها إلى اللغة الأدبية المنزاحة عن المألوف لتحمل دلالات جديدة وترتبط في علاقات أخرى مع مدلولات مغايرة، تقيمها داخل البناء الكلي الذي ينتظم داخله النص"[10]، فينبغي تجاوز الدلالة السطحية الأولية للنص الناتجة عن القراءة الأولى المباشرة، إلى القراءة المتأنية المتفحصة التي تتقدم في مستويات فهم النص واستخراج معانيه الكامنة والمحتملة، والتعمق في مجاهله عبر تفكيك بناه وعلاقاته بغية فهم هذه العلاقات وطبيعتها، وقدرتها على التأثير وإثارة الانفعال في النفس وتوليد المعنى، ثم فهم الدوال التي يتكون منها على الاحتمالات التي تحيل إليها داخل السياقات المرافقة، وداخل التراكيب والجمل والنص كاملا، ثم تأويلها التأويل المسموح به للوصل إلى نتائج عميقة بعد هذه السلسلة من القراءات التي تعيد بناء النص وربطه بعلاقات أخرى من جديد تستخلص المعنى وتشكل الوعي. إنَّ هذا المعنى الأولي للنص هو ما يشكل القاعدة المشتركة التي ينطلق منها القارئ في عملية قراءة أخرى أعمق، وأكثر انفتاحا وتحررا لتصنع معانيها بعيدا عن إكراه مرجعية المؤلف أو النص أو القارئ، بل عن طريق الاستناد إلى مرجعيات أكثر علمية ومنهجية تقوم على التأمل والتحليل والتفسير ورصد جميع الاحتمالات الدلالية والاحتمالات التي تشكل علاقات الدوال والبنى النصية ببعضها بعد اكتشافها، ثم التقدم وفق هذه المنهجية مع ربط كل نتيجة جديدة بالنتائج المتوصل إليها من قبل، ومقارنتها بالمقدمة المنطلق منها لمراقبة تطور الرؤية ومدى التعمق في مستويات الفهم النصي.

**3.3-المعنى والمؤلف:**

بطبيعة الحال لا يمكن إنكار دور المؤلف في معنى النص، وإلا لما كان للمعنى الأولي الذي يظهر مع القراءة السطحية وجود، ولما استطاعت عملية القراءة التأسيس لهذه القاعدة المنهجية والسياق المشترك الذي ترتقي عليه إلى قراءات موالية أكثر اغتناءً وعمقا، بل ما كانت لهذا المعنى وإن ظهر أهمية في النص الأدبي، بل قصارى فعله هو ربط الدوال ببعضها في النص لتحقيق التراكيب ثم تشكيل مدلولات هذه الدوال داخل التراكيب وداخل البنية الكبرى للنص، والتي تعطي المعنى العام والمباشر له، إنَّ هذا المعنى الأولي يحمل جزءا معتبرا من مقصدية صاحب النص، لكن لا ينبغي الاقتناع بها وعدم مجاوزتها وإلا أجهضت كل عملية قرائية بعد ذلك، ظنا أنَّ المعنى قد اكتمل والنص قد فُهِم، بل من الواجب محاولة الانسجام معها لتأسيس المنطلق المشترك بين النص وقارئه للانطلاق في العملية الأصعب وهي اكتشاف النص وتحليل بنياته الداخلية سعيا نحو استخراج

جملة المعاني الموجودة فيه، وفتح باب التأويلات الممكنة له، لإدراج قراءة جديدة إلى جانب كل القراءات المقدمة، ذلك أنَّ جهد القارئ في نظرية القراءة لا يجب أن يكون محدودا في المعنى السطحي بالطريقة القاموسية، بل البحث في معنى هذا المعنى السطحي الظاهر وبذل الوسع والطاقة في البحث عن المعاني الخفية وراءه، وكل اكتشاف لهذه المعاني يمثل ارتقاء في مستويات النص ووعيا بواقعه، مع إمكانية مغايرة المعاني مع تعدد القراءات أو القراء بطريقة تجعل كل قراءة تختلف عن مثيلاتها كاشفة بذلك حركية النص وحيويته، وثراءه، لأنَّ المستويات التالية للقراءة الأولى من صنع القارئ وخارجة عن نطاق تأثير الكاتب؛ الذي يتحدد دوره في التمهيد لعملية تلقي القارئ للنص وصناعة المهد المشترك لعمليات القراءة المتتالية له، وعليه فكل قراءة بعدها تحدو للتميز عن غيرها وتتسم بمدى أوسع من الجدية والاجتهاد.

تتفاوت القراءات المقدمة للنص الأدبي عن المعنى الأولي السطحي قربا وبعدا تبعا لقدرة القارئ على التوغل في مغامرة مجاهل النص وبناء معناه، "فالمقصدية تقوم على التفريق بين المعنى والدلالة. فالمعنى هو ما يمثله نص ما، ما يعنيه المؤلف باستعماله لمتوالية من الأدلة الخاصة، أي المعنى ما تمثله الأدلة. وأمَّا الدلالة فتعني العلاقة بين المعنى والشخص أو المفهوم أو الوضع أو أي شيء يمكن تخيله. والمعنى ثابت غير متغير لأنَّ مقاصد المؤلف التي صدر عنها المعنى معطاة بكيفية نهائية. أما المتغير فهو الدلالة التي يمنحها كل مؤول للنص بحسب مقاصده ومقصديته. فبهذا الثبات الذي يضمن الاستمرارية والاشتراك، وهذا التغير الذي يراعي مختلف السياقات، يمكن التحدث عن صحة التأويل فالمعنى هو موضوع الفهم، والتأويل والدلالة هما موضوع الحكم والنقد. ومهما اختلفت التأويلات فإنها تكون غير متناقضة لأنها معتمدة على أرض معنوية مشتركة قابلة إعادة الإنتاج، تلك هي المقاصد"[11] التي يمكن أن تفتح لا محدودية المعاني الممكنة للنص والمعطاة له، والتي تسهم في التركيز على دور وعي القارئ وإرادته في إنتاج المعنى، وربما ردت إنتاج بعض المعاني إلى لا وعي القارئ الذي قد يعطيه تأويلا ممكنا وصحيحا لنص ما، إلا أنَّ احتمال تناقض التأويلات وتضادها قائم كون التأويلات تنطلق عبر جملة من المتغيرات مثل العصر الذي يعيش فيه الكاتب والسياق الذي كتب فيه نصه، ثم عصر القارئ وسياقاته أيضا، إلا أنَّ هذا ينفي حمل النص لهذه التأويلات المتناقضة وليس دليلا على تجاوز لمعناه الأصلي.

**4-البحث عن المعنى:**

إنَّ البحث عن المعنى في النص الأدبي منطلق من التسليم الذي ترسخ في ذهنية النقاد أنَّ النص هو شكله الخارجي الظاهر للعيان، وتلك الكلمات المكونة لبنيته بطريقة مغلقة تبدأ من غلاف وتنتهي بغلاف آخر، ونتيجة هذا هو الدراسة التي طبعت هذه النصوص والمعتمدة على شرح كلماتها وربط دوالها بمدلولات واحدة لا تفارقها، وعليه لن يقبل النص إلا معنى واحدا لا ثاني له، بسبب صورة الاكتمال التي يظهر عليها، ثم بسبب تطلب مراد صاحب النص، وتوخي الطريقة المنهجية لفهم مقصدية المؤلف، والمعنى الذي أودعه في نصه، "بسبب أنَّ الدليل بمعناه التقليدي وحدة منغلقة على ذاتها، وهذا الانغلاق يوقف المعنى ويمنعه عن أن يكون متعددا، كون النص موضوع عمليتين هما التحقيق والتأويل، فالتحقيق يسعى للتثبت من الدال الموحد، والتأويل يحصر المدلول ويضبطه داخل المعنى الأحادي"[12] الذي ينبغي على القارئ ضبطه واكتشافه، ليغلق النص ويكمل عمله لدى بلوغه هذا المطلب عن طريق الاستعانة بجملة من المناهج النفسية أو الاجتماعية، من أجل تحصيل بعض

الخبرة التي يواجه بها النص الأدبي ويستطيع بها تأويل المعاني الظاهرة على ضوء هذه الخلفيات النفسية والتاريخية والاجتماعية التي تأخذه إلى خارج النص، ليجيب عن أسئلة بعيدة عن النص وعن مكوناته ومكنوناته، متجها بذلك إلى إلغاء النص من مجال الدراسة وجعله في أحسن الأحوال على هامشها، ليجعله في مصاف النصوص العادية حين يواجهه بمثل هذه العدة النقدية، لأن القراءة التي تتحرى البحث عما تعتقد أنه معنى النص الحقيقي، هي قراءة لا تعي موضوعها ولا المادة التي تعمل عليها، ولن تكون إلا قراءة سطحية غير مجدية لأن "النص الأدبي ليس أدبيا بمعناه أو من حيث نشأته، وإنما هو أدبي بحكم الكيفية التي يعبر بها عن طريق صياغته وأسلوبه وطريقته ووظيفة اللغة فيه، والكيفية التي تعبر بها الآثار هي المظهر الجوهري للإنتاج الأدبي"[13] وهذا ما يميز بين النص الأدبي وغيره من النصوص نظرا لاشتراكها في خصائص كثيرة كالشكل وحمل المعاني وإجبارية المنشأ، ثم اختلافها فيما سوى ذلك لا سيما طريقة بناء الشكل داخليا، ونعني بذلك تركيب الدوال مع بعضها، ثم العنصر الجوهري في النص الأدبي وهو الوظيفة الشعرية للغة، مع تفاوت النقاد في تبني هذه النظرة، لأن أحد أهم نقاد الشكل في إحدى فتراته وهو "رولان بارت" كان يعتقد "أنَّه لا يمكن رد النصوص الأدبية إلى أنظمة مفهومية، إذ المفاهيم نفسها في الكتابة المتخيلة تفقد طابعها المفهومي"[14] لأنَّ هذه النصوص ذات طابع تخييلي يختلف حكمه عن الواقع، وعليه فالمعنى ليس موجودا في واقعها، بل في متخيلها أيضا الذي يبتعد مرة أخرى عن بنية هذا النص وبالتالي عن معناه، فلا يتعامل القارئ مع النص بهدف استخلاص معناه وإبرازه، لأنَّ المعنى موجود سلفا وجاهز في شكل النص، بل يحاول البحث عن معنى هذا المعنى وتحديده بكافة الاحتمالات التي تطرأ على خلده وباستعمال الطرق المنهجية الممكنة التي تخوله الغوص في المعنى الأولي لاستخراج المعنى الآخر الخفي وراءه، أو عن طريق جملة من القراءات التي تنتقل من مستوى إلى آخر بدءا "بالقراءة الإسقاطية التي ينشغل فيها القارئ بالمؤلف وقضايا المجتمع. والقراءة التفسيرية، وهي التي يعيش فيها القارئ داخل النص معلقا عليه على مدار القراءة. والقراءة الجمالية، وهي التي تنظر إلى العمل الأدبي بوصفه نظاما ينبغي أن يكتشف تكوينه من خلال اكتشاف العلاقات بين الأجزاء"[15]، وقد تختلف تسمية أنواع القراءات هذه، إلا أنَّها تشترك في الوظيفة كل قراءة تقوم على الأخرى ثم تقوم ببناء وتطوير نفسها مع تقدمها في النص وكشف علاقاته التي تربط بين عناصره وتفكيكها وإعادة فهمها وتركيبها، ليظهر معنى كل قراءة ثم معنى ذلك المعنى وهكذا يتجمع المعنى الكلي للنص وتشكل وجوده مع كل عملية قراءة.

تفرض عملية القراءة إيجاد النسق الذي ينضوي تحته النص، ويجعل منه واقعا بعلاماته المترابطة وفق هذا النسق أو النظام اللغوي، بما يكفل له حمل المعنى المناسب، والمعاني الأخرى، وتفرض الانطلاق من المعنى الأولي المحمول على الشكل لتعبر عليه وتصل إلى معاني المعنى، والمعاني المتجددة المستنبطة منه، ويتم هذا مع كل تقدم في عملية القراءة وتعمق في مستويات النص المؤدية إلى اكتشاف المعاني والدلالات فيه، من القراءة السطحية الإسقاطية إلى التفسيرية فالجمالية التي تهدف إلى تحقيق أهداف نظرية التلقي والوصول إلى تفسير الظواهر الحادثة من التفاعلات إلى التأثيرات إلى التأويلات العديدة للنص.

**5-دور القراءة في تحقيق معنى النص:**

تُولي نظرية القراءةِ القارئَ الأهمية القصوى في إعطاء معنى النص، وتمنحه صلاحية اكتشاف الدلالات فيه، والتأويل المناسب الذي لا يتناقض مع سياقات النص التي توجه عملية القراءة هذه، لا سيما بعد التوجهات التي عرفتها الخلفيات الفكرية للمناهج السابقة للنظرية، والتي جعلت القارئ محض مستهلك، ومع الابتعاد بالقراءة وبالتالي النص عن حيز صاحبه، فإنه قد تم إعلان موت المؤلف لمد صلاحيات أكثر للقارئ لأنَّ "مولد القارئ يجب أن يؤدي ثمنه بموت المؤلف"[16] رغم أنَّ تطلب مقصد المؤلف يسهم في ربط النص بقارئه من خلال بسط الأرضية المشتركة بينهما، إلا أنَّه قد يعتبر حاجزا أمام انفتاح النص على احتمالات أخرى لن تتبادر إلى ذهن القارئ إذا ظل حبيس هذه النظرة، فبعد موت صاحب النص تمنح الحياة للنص الأدبي لينفتح على لا نهائية المعاني التي تعمل القراءة على اكتشافها، على أنَّ هذه المعاني اللانهائية لن تكون بالضرروة صحيحة مهما كانت متنوعة ومغرية، ما لم تناقض الشروط المنهجية لعملية القراءة، أولها عدم مخالفة المعاني السطحية للنص، أو تعارض الأرضية المشتركة التي ينتجها النص أوليا ممهدا لبدء التفاعل الإيجابي بينه وبين القارئ، "فالقصة التي يطالعها القارئ في نص أدبي، لا يتلقاها وهي جاهزة، وإنما القارئ هو الذي يقوم بإنشائها وفق قوانين استدلالية تضفي شرعية على إبداعه لها"[17]، وهذا مشابه لمبدأ القراءات المتعددة المنتجة لعدد لا نهائي من المعاني وبالتالي عدد لا نهائي من القصص الأخرى، وكل قراءة تنتج قصة مختلفة عن سابقتها، لأن القراءة في عرف نظرية التلقي هي عملية منتجة وإيجابية وليست مجرد استهلاك سلبي لا يشارك القارئ في صناعة المعنى، لهذا يؤكد على العدة المنهجية والمعرفية للقارئ المنتج والمشارك في إنتاج المعنى الذي له مفاتيح دلالات النص المنغلقة والواجب عليه فتحها أثناء القراءة، وهذه العملية المعقدة تجعل القارئ يبحث عن ذاته داخل النص فإذا "تطلع إلى تأكيد انطباع ما، فإنه يلجأ إلى القصص التي يمده بها الآخرون عن قراءاتهم ومع ذلك لن تتطابق قصتان تستندان إلى النص نفسه، فكيف يمكن شرح هذه التعددية؟ إنَّ هذه القصص لا تصف عالم الكتاب نفسه، ولكنها تصف العالم المتحول تماما كما هو قائم في نفسية كل فرد"[18] نظرا لاختلاف العوامل المؤثرة في كل قراءة وفي كل قارئ، والتي يجب البحث عنها في القارئ وفهمها باعتبارها المؤثرَ في المعنى، والتي تؤدي تغيره بتغيرها متمثلة في مرجعيات القارئ الفكرية والنفسية وثقافته وإيديولوجيته، وحالاته أثناء القراءة إضافة إلى عنصري الزمان والمكان الذين يكتنفانه حال عملية قراءة النص، وهذه العوامل من الأهمية بحيث تعد أحد الفواعل الرئيسة في مقاربة المعاني المتوخاة من النص لذلك أولتها نظرية التلقي عناية خاصة وحاولت حصرها في العناصر التالية[19]:

1-نص مقدم.

2-قصد التلقي وتصورات الباث وثمرة يطمح إليها، وهي متوقعة بناء على حاجات محددة.

3-كفاءة المتلقين تبعا لحالاتهم الثقافية والعاطفية.

4-تلقي النص وفهمه.

5-المحصول المستهدف: تغيرات ثقافية وعاطفية، وأفعال أيضا.

فيدخل القارئ في عملية قراءة النص وتلقيه حسب حالاته النفسية والعاطفية، وخبراته السابقة ومخزونه الثقافي والإيديولوجية الفكرية التي ينتمي إليها أو يتبناها ليقوم بإنتاج نص جديد داخل نطاق هذا

التفاعل، وتتعدد النصوص بتعدد القراءات حتى لدى القارئ الواحد لدى محاورته نصا أدبيا واحدا معينا، تبعا لتغير مزاجه النفسي وتطور ثقافته ومهارته القرائية كلما زادت قراءاته، وبتغير الزمان والمكان بين كل قراءة وأخرى مما يكسبه مهارات جديدة في التعامل مع النصوص، أو ينسيه مهارة أخرى كانت تشكل عدته النقدية من قبل، فيصبح تعامله مع النص بناء على الخبرة الجديدة التي استحدثت نتيجة عملية القراءة السابقة، وينتج تبعا لذلك نصٌّ جديد مغاير للنص الأول.

**6-الخاتمة:**

إذأ فإن أمثل تحقق للنص ومعانيه يكون حين ينجح النص والقارئ في تشكيل أرضية سياقية مشتركة بينهما تتكون من البني الثقافية والإيديولوجية والنفسية، وابتداء حين يكون لقطبي العملية استعداد للتشارك في هذا المستوى الأول من خلال علاقات محتواةٍ في كل منهما، ليستطيع القارئ الارتباط مع النص بعلاقات إيجابية أو سلبية، نتيجة احتواء كل منهما على بنيات وعناصر قابلة للتفاعل أخذا وعطاءَ، حيث يتقبل كل منهما الآخر، أو يرفضه ليبحث عن سبل أخرى تجعل هذا الترابط ممكنا، وتؤسس دعائم نظرية القراءة الأولية، لتبنى عليها بقية القراءات المعمقة التي يكتشف فيها القارئ النص والنص القارئ، ويبدأ إنتاج الدلالات واكتشاف الذات داخل الموضوع، وصناعة الموضوع داخل هذه الذات.

**هوامش وإحالات المقال**

[1]-voir: Wolfgang Iser, L'acte de lecture, Margada, Bruxelles, 1985, p198.

[2] **Ibid, p199.**

[3]-وولفغانغ إيزر، حوار مع نبيلة إبراهيم، تر: فؤاد كامل، مجلة فصول، العدد 1، المجلد 5، أكتوبر-نوفمبر-ديسمبر، 1984، ص107.

[4]- وولفغانغ إيزر، حوار مع نبيلة إبراهيم، مرجع سابق، ص108.

[5]-ينظر: سيزا قاسم، القارئ والنص، مجلة عالم الفكر، الكويت العدد 3و4، مارس 1995، ص255.

[6]-ينظر: سيزا قاسم، القارئ والنص، ص255.

[7]-عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، المركز الثقافي العربي، ط6، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص16.

[8]-ينظر: عبد القادر بوزيدة، جمالية الاستقبال (أو التلقي) عند هانس روبرت ياوس، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، العدد 10، ديسمبر 1996، ص17.

[9]-تزفيتان تودوروف، مفهوم الأدب، تر: منذر عياشي، مطابع دار البلاد، دط، جدة، المملكة العربية السعودية، 1990، ص107.

[10]- ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 1997، ص62.

[11]-ينظر: محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال، ط1، المغرب، 1990، ص105.

[12]-ينظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب، 2001، ص22.

[13]-ينظر: حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة، ط2، تونس، يناير 1985، ص66.

[14]- حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية، مرجع سابق، ص66-67.

[15]-نبيلة إبراهيم، فن القص بين النظرية والتطبيق، نقلا عن سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 1997، ص316.

[16]-عمر أوكان، لذة النص أو مغامرة الكتابة عند بارت، إفريقيا الشرق، 1991، ص62.

[17]-ينظر: روبيرت شولز، السيمياء والتأويل، تر: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات، ط1، بيروت، 1994، ص188.

[18]-ينظر: تزفيتان تودوروف، مفهوم الأدب، مرجع سابق، ص26.

[19]-سعيد حين بحيري، علم لغة النص، مرجع سابق، ص188.

## المصادروالمراجع:

1-voir: Wolfgang Iser, L'acte de lecture, Margada, Bruxelles, 1985,.

2 -وولفغانغ إيزر، حوارمع نبيلة إبراهيم، تر: فؤاد كامل، مجلة فصول، العدد 1، المجلد 5، أكتوبر-نوفمبر-ديسمبر، 1984.

3 -ينظر: سيزا قاسم، القارئ والنص، مجلة عالم الفكر، الكويت العدد 3و4، مارس 1995.

4 -عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، المركز الثقافي العربي، ط6، الدار البيضاء، المغرب، 2006.

5-ينظر: عبد القادر بوزيدة، جمالية الاستقبال (أو التلقي) عند هانس روبرت ياوس، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، العدد 10، ديسمبر1996.

6 -تزفيتان تودوروف، مفهوم الأدب، تر: منذرعياشي، مطابع دار البلاد، دط، جدة، المملكة العربية السعودية، 1990.

7- ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 1997.

8 -ينظر: محمد مفتاح، مجهول البيان، دارتوبقال، ط1، المغرب، 1990.

9 -ينظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب، 2001.

10 -ينظر: حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة، ط2، تونس، يناير1985.

11 -نبيلة إبراهيم، فن القص بين النظرية والتطبيق، نقلا عن سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 1997.

12 -عمر أوكان، لذة النص أو مغامرة الكتابة عند بارت، إفريقيا الشرق، 1991.

13 -ينظر: روبيرت شولز، السيمياء والتأويل، تر: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات، ط1، بيروت، 1994..